سرير عنكبوت

قصص قصيرة

عصام حسين عبد الرحمن

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : سرير عنكبوت
المؤلف : عصام حسين عبد الرحمن
تصنيف الكتاب : قصص قصيرة
تصميم وإخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٢٣٣٩ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 510 - 7

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إن مَا يَبقى فى أعماق النفس مِن أمور أكثر كثيراً مِما يظهر فى الكلمات.

دوستويفسكي

القسم الأول

حرائق الروح

فى الفراغ

قبل وصولى إلى هنا تخلصت من كل ما أملكه.

لم أكن أريد منها غير أن تكون فقط محطة عابرة فى حياتى، ترحل بعدها، ولا تترك خلفها غير ذكرى، لا يهمّ أن تكون سعيدة أو حزينة.

قلت لنفسى: من يرد الوصول لا يحتاج لوسيط.

على أن أنظف المكان. لم يكن كبيرًا، ولم تكن مساحته أكثر من ثمانية أمتار مربعة، وكان بعيدًا.. بعيدًا جدًا، وكان وحيدًا، بدا مهجورًا، لا شيء هناك غير فراغ لا محدود من حوله.

لم يتبق معى غير بعض الكتب، قليل منها أملكه، والكثير استعرته وعلىَّ أن أرده، وبنطلون وقميص وجورب وحذاء كان من الصعب على أن أميز ألوانها.

كنت خائفًا من كل شيء، فمن أدرانى أن ثمة بشرًا آخرين يأتون إلى هنا، الغريب أن فكرة الخوف من الكائنات الأخرى لم تراودنى على الإطلاق. كان علىَّ أن أتخلص من خوفي. لاحاجة لى للإنارة بعد انسحاب النهار. لم أسمع بالليل وأنا المغطى بأكاليل من قشر البصل الأحمر سوى صرير ضعيف يروح ويجيء على استحياء، وفى الصباح يشير إلينا الرجل العجوز إلى سيارة نقل، كانت أشبه بسيارة نقل الجنود، نتقافز فى صندوقها الخلفى بسرعة فائقة، تلقى بنا إلى باب عشرة بمينا البصل، يمسك كل منا بمسلة وبكرة خيط، ويستلم ركنه، يخيط ما يستطيع من أجولة القمح والشعير، حدِّى الأقصى كان مائة جوال بأجر ثلاثة جنيهات.

بحثت عنه فى كل مكان، وفى أول ليلة تحسسته، كان وحيدًا، وصغيرًا، تنبعث منه رائحة كريهة اعتدتها كما اعتدت من قبل رائحة قشر البصل، فى الليالى التالية كان يتكاثر بطريقة عشوائية، اشتد الصرير واستمر بلا انقطاع. حاولت التحمل والمقاومة بوضع ماتبقى من قماش ملابسى على أذنيّ.

رغم كل ما فعله لم تتغير ملامحه وخاصة نظرة عينيه، ملابسه التى ثقلت ولحيته التى طالت وجسده الذى نحل، يقف بالقرب من باب مرقدى، فى فراغ ممتد بين السماء والأرض، لا هو متمكن من الوقوف ولا هو واثق من الصعود، كأنه معلقٌ، وكأن الجاذبية قد اختفت، جنبا بجنب تقف المرأة، يتحدث معها بعصبية وبلغة وجدت صعوبة بالغة فى فهمها. .

لا أعرف كم مضى من السنين، غير أنى أتذكر جيدًا أن الجوع قد ضربنى فأكلت منها كل يوم واحدةً، وكنت أخرج بعد الأكل فأجد الرجل النحيل والمرأة التى يحدثها

يهبطـان باتجـاه الأرض، وفى اللحظـة التـى لثماهـا بأقدامهـما، كنـت أرتقـى للسـماء.

أثناء المحاكمة قلت :

لم أرَ أحـدا، ولم أقـم بفعـل أى شيء لهـما أولغيرهمـا مـن البـشر.

الآخر

دعتنى أمى، وكانت عائدة من السماء لمجلسها، معطرة ونضرة العينين، قالت : خلاص روحك لن يكون فرديًا، لابد أن يمر بالآخر كشرط، اعبر الجسر، واعلم أن الطيور الحذرة تسقط أكثر من غيرها.

كان يجب علينا أن نجتاز هذا الجسر المتهالك المصنوع من جذع شجرتين، بالكاد يتسع لشخصين، نما إلى علمى، أن لا أحد بمفرده استطاع اجتيازه، رغم محاولات العشرات من الناس، وفى كل مرة كانوا يتساقطون ويختفون. أصدق أمى وأؤمن برسالتها، وأعرف ما الذى ينتظرنا بعد اجتيازنا وعبورنا له.

اتبعت النور الذى يشع من روحى فى لحظات تشظٍّ، والذى يعقب جلوسى فى حضرتها أعرفها جيدًا، متى تأتى وإلى أين تأخذنى؟!

أعلم أيضا الصعوبة التى سأواجهها مع رفيقتى فى العبور، فهى لا تتبع إلَّا انعكاس المرايا والصور على روحها.

توقفنا أمام الجسر، سألتنى: أمتأكد أنه سيحملنا للبر الآخر؟!

لا خيار آخر أمامنا، علينا أن نسير.

وماذا لو سرنا لجسر آخر أكثر تماسكا، أخشى السقوط.

الحركة يحكمها الزمن، أخشى أن يخفت أو يذهب النور عنا، ويبتلعنا الظلام.

تلعثمت فى كلماتها، فبدأت أرى فيما يرى الحالم، أننا نقف على مسافة متساوية بين الماء والهواء، على إثرها تسارعت نبضات قلبى، فخشيت الهزيمة.

لا أستطيع التحكم فى الزمن، لحظة التشظى سريعة وفجائية، وهذه المناقشات البيزينطية، لا طائل من ورائها غير مزيد من ضياع الوقت، والعبور لن يكون فرديًّا، فالسقوط سيكون عندئذ حتميًّا.

لقد كانت دعوتها فى لحظة استثنائية، علينا أن نعبر معا لنصلى بعدها بإخلاص، ثم السير إلى القوس الأخضر، أمام البحيرة المقدسة لنستمع للحن الخلاص، وبعدها سنكون فى بيتنا، الذى قالت عنه أمى: إنه قطعة من الجنة.

قالت: سأسير وحدى، أحب اكتشاف الأشياء بمفردى، إذا تشابهت الجسور سأعود إليك.

تركتها، وعدت أنتظر أمى، وأفكر فى آخر ثان، يشاركنى عبور الجسر المتهالك.

العباءة الزرقاء

دخلت المكتب فجأة، صرخت فى وجهى. أبويا بيموت حد يسعفه. انتفضت مسرعًا ناحية الاستقبال والطوارئ، لم أرفع عينى لحظة عن وجهها المستدير، لم يتغير، كما هو منذ عشرين عاما، رغم المفاجأة، ورغم ارتفاع وتيرة القلق والتوتر، ظلت عيناها رائقتين ومريحتين وبشرة الجلد يانعة ولامعة وكأن سنين العمر لم تبتلع منها شيئًا.

وأنا أفحص المريض، ارتد لأذنى وقع كلماتها بعد الصرخة: أبويا بيموت!

أتذكر ذلك اليوم جيدًا، لقد شاهدت لحظة دفنه، لم أنصرف ساعتها إلا بعد إغلاق عين المقبرة نهائيًا بالطوب والطين. لم يكن هناك إلَّا نفر قليل قد شيعوا جثمانه، لا

أحد يعرف فى القرية كلها من أين جاء؟ وإلى أى العائلات ينتمي؟ ظل يتردد على مقهى نصار كل ليلة، كان مدمنًا للعب الورق، الوحيد الذى خرج منها رابحًا، اشترى البيت الذى شهد وفاته وفى نفس يوم الشراء وقبل المغرب، أتت ابنته عواطف، ترتدى العباءة الزرقاء، المطرزة بقوس هلالى ينتهى طرفاه عند جذر النهد فى تجاه الإبط.

مع تدفق الفلوس، لم يعد أحد فى القرية يسأل عن أصل وفصل عبد ربه، كان يستقدم آخر كل شهر الراقصات وفرق الموسيقا والغناء. وكنت أزهد فى الآنى والآتى إلا وجهها، يظل عالقًا بروحى، يجتاح معادلات الكيمياء العضوية، ويتربع على حلقات البنزين وذرات الكربون فى الثانوية العامة. كنت وحيدا مثلها فى مقاعد بيتنا الريفى المجاور لبيت عبد ربه، لا يفصلهما غير سور متهالك من الطوب الطينى، كجنيات الليل اقتحمت خلوتى، وجدتها أمامى أمًّا وأختًا وحبيبةً وعشيقةً، كنت تحت عباءتها أستظل من حرائق القلق والتوتر فأهدأ تمامًا، تتفكك أمامى كل لوغاريتمات الكيمياء، فأرى القادم أفضل.

وجهه شاحب، يتصبب عرقًا، بارد الأطراف، بالكاد يلقف هواء الغرفة، كل الشواهد تشير إلى إصابته بـ«وذمة رئوية حادة» نتيجة ارتفاع ضغط الدم.

كان عليَّ أن أسحبه إلى العناية المركزة. سمحت لها بمرافقته، ضاربًا بعرض الحائط كل التعليمات.

عيناى مثبتتان وبإصرار شديد على وجهها، تمسحه كالرادار، لم تظهر رقبتها كاملة، وددت لو أن أستظل بعباءتها الزرقاء حتى تهدأ روحى تمامًا.

سكن طائر الليل الحزين غرفتى، باعها عبد ربه للقادم من بلاد الذهب، سافرت معه لبعيد لا أعرفه.

أصوات أجهزة مراقبة العلامات الحيوية تقطع إغفاءتها المتتالية، وأمنيتى لا تنقطع حبالها، والعباءة الزرقاء تداوى أنينًا مكتومًا للروح.

مالت قليلا برأسها، فانزاح غطاء الرأس.

ظهـرت الرقبـة مـن بعيـد كاملـة، تزينهـا الحبـة البنيـة فـوق عظمـة الترقـوة اليمنـي.

لقـد شـاهدت لحظـة دفنـه، لم أغـادر المقـبرة إلا بعـد أن أغلقوهـا بالطـوب والطـين.

عـدت وحـدى مـن المقـبرة، العبـاءات كلهـا سـوداء. السـماء تعلـن عـن سـطوتها برقًـا ورعـدًا وخوفًـا، أتسـمر واقفًـا فى مكانـى، تنتفـض مـن عـلى كرسـيها خوفـا مـن بـرق نافـذ، يخـترق شـباك غرفـة العنايـة، مصحوبًـا برعـد كطلقـات المدافـع المتتاليـة، العبـاءة الزرقـاء تدنـو منـي، مازلـت أود الاسـتظلال بهـا، ترتمـى فى صـدرى وتبكـى، ترفـع عينيهـا وتسـألني: أبويـا مـش هيمـوت، مـش كـده؟!

الأنفاس الضيقة

كدت أن أصاب بالإعياء الشديد، جراء إقناع نفسى بالسير وراء هذا الإحساس، ثمة أسباب لا تمت للعقل بصلة تدفعنى للهروب منه. حاول صديقى أن نكون معا كما خططت منسقة المواعيد، يومها عاد بالورقتين وقال مطمئنًا: مرافقى يحمل ثلاثة ألقاب (صديق ومريض وطبيب)!.

لم أعد قادرًا على تحمل نفسى، فما بال الآخرين؟! فتح باب السيارة وجلس وعقلى مشغول بهن، ازدادت نوبات ضيق النفس والكحة الجافة الهالكة وابنتها منعقدة اللسان، ينفك فقط وتصاب بالثرثرة عندما تتحدث عن جمال مزعوم، أو كتابة تائهة، أو صور لها تضعها على «الانستجرام «كنجمات السينما، لا تبالى بها، غير أنها ترمى

بكل الأحمال عليّ. تنتظر أن يتدفق نهر الحب فى أراضيها كما كان، وأن ينسكب حنانى على راحتيها بأمان، وأن ألتقط ما برأسها وأطلقه حرًّا، كطائر لا يكف عن الحركة، أفعل كل ذلك، ولا أنتظر للطرف الآخر ، نفس الأفعال ولو بنسب مختلفة، يتوقف قانون النسبية عندها ويتصدر المطلق مشهدنا معا.

صديقى ينتظر أن أحرك السيارة، أشعر أن الحياة قد تجمدت، فكرت أن نستبدل أماكننا، لكنه لا يعرف كيف يقودها. سارت فى الشارع كرجل ثمل خرج لتوه من البار، فتحت السيارات التى تسير خلفى وعلى الجانبين أبواقها، وانهالت بالسباب ورغم اعتذاري المتكرر لم تتوقف.

كان على التوقف قليلًا، انتحيت جانبًا وعند أول مقهى جلسنا. كان حديثنا بائسًا ومكررًا، الدائرة المغلقة دائمًا، كيف لأحد أن يلتقط بداية الخيط من على المحيط، وكيف له أن يستقيم؟

شجرة الكافور العتيقة، فى بيتنا الريفى، لم يكن يقف على أغصانها إلا العصافير، عندما تزقزق جماعة، كانت

أمـى والصبـاح يدخـلان سريـرى فأنهـض، مـر العمـر سريعًـا وتغربـت بعيـدًا، وفى الإجـازات ظـل سريـرى كـما هـو، ورغـم غيـاب العصافـير كان الصبـح يدخـل مـن النافـذة ويحـط عليـه فى نفـس اللحظـة التـى أجـد فيهـا أمـى عـلى نفـس السريـر مبتسـمة، تضـع صينيـة الإفطـار الشـهى أمامـى وتناولنـى أول لقمـة، قائلـة: بالهنـا والشـفا، هـاروح أعمـل لـك الشـاي.

تـكاد تخنقهـا أنفاسـها، بالـكاد تحدثنـى، وبصعوبـة تجلـس، أطاحـت بوصلـة الوريـد مـن ذراعهـا، الميـاه تمـلأ غشـاء القلـب والرئتـين والقدمـين، أحـاول إطعامهـا القليـل مـن الطعـام السـائل ومعـه الـدواء، فى غفوتهـا، خرجـت مـن غرفتهـا محاولًا اسـتعجال الصبـاح الـذى تأخـر، تقدمـت قليـلًا، لتصبـح شـجرة الكافـور فى مرمـى بـصرى، لم أسـمع أى صـوت.

قـال صديقـى : لا تشـغل بالـك بهـا كثـيرًا، لـن تتغـير، عليـك أن تحتويهـا. لا ذنـب جنتـه أمهـا كـى تهجرهـا الآن. وقالـت هـي: لا أثـق فى غيرك..مـاذا جـرى لأمـى؟!

حـاصر المـوت الأنفـاس الضيقـة، واقـترب جـدًّا منهـا، ومهـما حاولـت إبعـاده يقـترب أكثـر.

خـرج مـن العمليـات، قـال الطبيـب إنـه زرع لـه دعامـة جديـدة، ومـزح معـه قائـلاً: قلبـك الآن كالـدرع الحديـدي.

هاتفته مباركا، فقال: كان زمانك زرعتها واطمنت.

لم أجـد ردًّا، غـير أنـى تذكـرت كلـمات أمـى لزوجتـى بعـد الزفـاف: إيـاك أن تغلقـى نوافـذ الغرفـة مهـما كان، واحـرصى عـلى سريـرك مهـما تأخـر الصبـاح. لكنهـا ظلـت تغلـق الأبواب والنوافـذ صيفًـا وشـتاءً، ويجـئ الظهـر وربـما مـن بعـده العـصر ولا يدخـل الصبـاح.

ظللـت أقطـع المسـافة بـين البيتـين عـدة مـرات فى اليـوم الواحـد. الأنفـاس جميعهـا ضاقـت، هـى وأمهـا وأمـى فى لحظـة واحـدة، ارتـدت عـلى وجهـى فتجهـم، سـارعت أمـى بارتـداد أنفاسـها بابتسـامة عميقـة، واحتضنـت المـوت وسـافرت معـه، بعـد مراسـم الجنـازة تركـت سريرهـا، هاتفـت صديقـى، ثـم جـراح القلـب، قلـت لهـما: لم أعـد أخـاف المـوت!

مفاوضات

لا أعرف من منَّا ضلَّ طريقه، توقفت بل تجمدت مفاوضات فض شراكة تجاوز عمرها ربع قرن، لم يُذكر شيء عنهم فى العقد، كنا لا ندرك أن للأشياء المبهمة نهاية، رغم وهج البدايات، فى كل المراحل التى كنا نصعد فيها السلم من المستوى الأرضى مرورًا بالمستوى الأول ونهاية بالمستوى الثالث، لم نكن نفكر معًا، بل الحقيقة أننا لم نكن نصعد أو نهبط معا، كما لو كان وضعا اضطراريًا. قبل الشروع فى فض الشركة، لا أحد كان مهتما بالقطع الثلاث، ولولا حرصى على نظافتها لافترشها الغبار وأطفأ لمعانها، سيف صغير مطلى بماء الذهب ومغطى بجراب من جلد أفعي، ومعلق بركن على الحائط، خلف مكتبنا، وهرم كبير مصنوع من خليط من المعادن، وفنجان من الخزف مطلى أيضا بماء الذهب.

لا أذكر على وجه التحديد من أهداها لنا، كما لا أذكر أيضا متي؟ لكنى متيقن أن ذاكرتى تستطيع أن تجزم بأننى خلال العام المنصرم، استخدمت الفنجان فى احتساء القهوة، القهوة بالنسبة لى هى الحياة ودونها الموت، ليس من باب الإدمان أو الاعتياد ولكن لأنى بدونها أصير كائنًا غير عاقل، أو مخلوقًا لا يتطور ولا يتقدم. عام كامل وشريكى لا يلاحظ ذلك ولم يكن يعنيه، فلماذا الآن يهتم بالقطع الثلاث، ويصر على التفاوض بشأنها؟!

بسلاسة وانسيابية ومرونة، انتهينا وتوافقنا على كل شيء، وبقيت القطع الثلاث عائقًا أمام إنهاء الشراكة.

لم تكن تهتم بأخذ صور لها معى، بقدر اهتمامها بالتقاط. الصور وهى بجوار الهرم، وكانت تصر على احتساء قهوتها فى نفس الفنجان، وفى الأيام الأخيرة وافقت على اقتراحى بأن نتشارك فيه، ولأننا لم نكن نكتفى بفنجان واحد، كنت أطلب من الساعي، عند وصولها أن يترك لى إعداد القهوة وقت تواجدها بطريقتى الخاصة، اتفقنا على أن من يشعل السيجارة أولا يحتسى النصف الأخير من فنجان القهوة.

قبل أسبوع من المفاوضات، كانت زيارتها الأخيرة، فوجئت بالتقاطها الصور مع السيف فقط، وكانت بمزاح مصطنع تبعدنى قليلًا حتى لا أظهر فى الصورة، أهملت الهرم تمامًا، وانصرفت سريعًا، لم تدخن ولم تشرب القهوة.

المستشار القانونى للشركة، أعلن تجميد المفاوضات حتى ننتهى من الاتفاق، متعللا أنه لم يجد حلًا قانونيًا أو شرعيًا لهذه المسألة!

خرجت على إثرها لا أعرف أين أتجه، غير أنى وجدت نفسى مستظلا بشجرة صفصاف على رأس حقل من الزهور، ورجل طاعن فى السن، يحثنى على الراحة، فى غفوتى رأيت السيف وقد تحول لأفعى رقطاء، تبخ سمها فى الفنجان الذى أصبح فى حجم خزان المياه، و الناس يخرجون من الهرم مسرعين نحوه ليشربوا، وقبل أن تتلوى أمعاؤهم من أثر السم، نهضت، فوجدتنى على الطريق الدائرى مرة أخرى، أتصل بالمستشار لأقول له :

أوافق أن يأخذ الشريك الثلاث قطع جميعها.

بديل اصطناعي

لم أعـرف لى أمـا غـير جدتـى. حـين لفظتنـى للدنيـا وفى نفـس اللحظـة ذهبـت للسـماء. حظيـت برعايـة خالتـى الكـبرى التـى كانـت عندهـا تقيـم جدتي.أصطحـب ابنتهـا عـزة التـى تصغرنـى بعـام كامـل، للمستشـفى لاسـتئصال ورم نبـت فجـأة بثديهـا الأيـسر. لقبتنـى بصائـد الثعابـين، نزعـت الخـوف مـن قلبـى وتحـررت تمامـا مـن خـوف جدتـى عـليَّ يـوم أن وطـأت قدمـاى أرض المدرسـة الإعداديـة. اسـتأجرت جدتـى عمـى سـعيد لاصطيـاد ثعبـان ظهـر فجـأة فى سـقف الحـمام المعـرش بالقـش وأعـواد البـوص.لم يكـن انبهـارى بـه السـبب الوحيـد الـذى جعلنـى فيـما بعـد أطـارد أى ثعبـان شريـد، وإنـما إظهـار مقدرتـى عـلى حمايـة عزة.تنظـر إلى مبهـورة، فأراهـا جميلـة الجميـلات. لا أدرى مـن أيـن يأتـى كل هـذا النور، ومـن جعلها

شفافة لهذا الحد، ومن غيّر فى شكل وتكوين هذا الثدى الذى كان مسطحا، فنهض وتضخم على هذا النحو. أنظر حولى كل حين، فلا أجد سوانا، تغيب اللحظة السحرية، لأعود للحظات أخرى لا أعرف لها تفسيرًا.

فى الطريق لبيت خالتى الصغرى عزيزة على أطراف القرية، كان علينا أن نمر من طريق يحازى الترعة. الصينية مثبتة على رأسها، وأطراف أصابع يدها اليمنى تحكمها جيدًا، الكف اليسرى تمسك بتلابيب جلبابى وتتشبث به.

(أم الشعور، المرأة التى تعيش بالترعة، وعيناها بتطق شرار، وثدياها من حديد مدبب)، حكاية جدتى كل يوم قبل النوم، بينما كان وجه عزة يرتعد من الخوف، كنت أخفى ضحكتى بين ثدييها وأنام متمنيًا أن أرى، ولو لمرة واحدة، هذه الجنية.

رغم الظلام الذى يلفنا، لم تخرج الجنية، وقبل باب بيت خالتى بأمتار قليلة كان (الثعبان الخضيري) يزحف عرضيًا بسرعة مدهشة تجاه الأشجار الكثيفة المصطفة على جانب الطريق.

رأى الطبيب الورم وقد افترش صدرها طولًا وعرضًا. رفع الخضيرى رقبته قليلًا وراح ينظر إلىَّ، همست لها أن تبتعد بهدوء وتمسك بالصينية بكلتا يديها. بحذر شديد وقفت مدققًا النظر عليه. انشقت الأرض فجأة عن عم سعيد، لاحظ ارتعاد عزة، طمأنها، واتجه صوب الخضيرى الذى أخفض رقبته، وفى أقل من اللحظة كان فى سيالته. استأصل الجراح الثدى الأيسر كاملًا حتى الإبط. أوصى بثدى اصطناعى بديل...قال سعيد :

الخضيرى ظن أنك قتلت رفيقته فكان يتتبعك.

قلت لجدتى: سأتزوج عزة وسأكتفى بثدى واحد.

عطر الحنين

اللحظـات الأخـيرة، والطائـرة عـلى وشـك الهبـوط، بـدا كل شيء هادئًـا وطبيعيًـا، المقعـد المجـاور لى خـالٍ، والمقعـدان الأماميـان يشـغلهما رجـل وسـيدة. وأنـا أتصفـح الكتيـب الخـاص بالطائـرة، تتسـلل إلى قلبـى كعطـر الحنـين، يزيدنـى اشـتعالًا فتئـن الـروح كأنهـا تكتـوى بنـاره، لم يكـن قـرار الانفصـال سـهلا، خـرج منـا بعـد حـوار طويـل، تعللـت بـأن الحيـاة أحيانًـا تجـبرك عـلى فعـل شيء لا تحبـه!

سـتظلين حبيبتـى حتـى أفـارق الحيـاة، الغريـب أنـى أشـعر الآن رغـم السـفر والترحـال والبعـد أنـى أحبهـا أكثـر وأكثـر.

مازالـت عينـاى تسـافران جيئـةً وذهابًـا عـبر صفحـات الكتيـب، أرفعهـما وانظـر مـن النافـذة الصغـيرة عـن يمينـى،

مازالت الطائرة فى الهواء والأرض بعيدة. لأكثر من ثلاث ساعات لم أسمع حديثًا دار بين الرجل والسيدة، ظلا صامتين كأنهما تمثالان من حجر، فى اللحظة التى قررت الذهاب فيها للحمام القابع خلف كابينة القيادة، اختلست النظر إليهما، ورغم ضيق اللحظة تفحصت ملامحهما، كانت ملامح باردة أو على الأقل محايدة، هل جمعتهما المصادفة؟! هل هما قريبان؟! هل ثمة علاقة تجمعهما؟! زوجان؟ حبيبان؟!

أم ماذا؟ لا أعرف لماذا كل هذه الأسئلة؟! وماذا أستفيد من طرحها؟! لكنى على أية حال، رغم مرور اللحظة الضيقة الخانقة، أجدنى هنا فى الحمام فى نفس الضيق الخانق أسحب معى تلك اللحظة التى اختلستها، أستطيع الآن أن أزيدها لدقائق فلا أحد ينتظرنى بالخارج. أسحب الزمن لساعة ماضية، تحديدا وقت الطعام عندما سألت المضيفة السؤال التقليدى: لحم أم دجاج؟!

الحقيقة أنا أجبت بكل وضوح: لحم. .كما كانت تجيب بكل وضوح. .فراخ!

لم ينطقا بكلمة، ولا أعلم كيف استطاعت المضيفة أن تضع وجبة اللحم أمام الرجل ووجبة الدجاج أمام السيدة.

هل أجاب كل منهما باشارات دالة على إجابته؟!

أحاول أن أهندم ملابسى وأمشط شعرى وأغسل وجهى، وأسترد يقينى.

أشعر بهبوط تدريجى للطائرة، يتزامن مع أوامر صارمة بالجلوس وربط الأحزمة وعدم تحريرها مطلقًا إلا بعد استقرارها نهائيًا على الأرض.

انشغلت بمحاولاتى العديدة الفاشلة لفتح خزانة الحقائب، ورغم محاولات البعض لمساعدتى إلا أننى فى النهاية، وبعد مرور أكثر من عشر دقائق، نجحت فى الحصول على حقيبتى، نظرت وقد خلت كل المقاعد، لم يتبق غير أربعة أو خمسة أفراد.

وأنا أتخطى باب الطائرة سعيًا لأولى درجات السلم، كانت المضيفة تقف على يسارى، تبتسم وتسألنى:

حضرتك الأستاذ هشام.

نعم.

هذه رسالة لك.

دون أن أسألها عن أى شيء، أخذتها والهواء الساخن يلفح وجهى، وعطر الحنين يجتاح أنفي والضابط يتفحص جواز سفرى، فتحت الرسالة «فى لحظة ما، فى مكان ما، كنت تشبه الملاك، وكنت تحلق بغير أجنحة إلى ملكوت العشق، شفاف جدًّا، ورقيق جدًّا، وحنون جدًّا. تدخل عيون القلب بشغف. لمّ عدت تشبه ذلك الإنسان؟».

فاصل طويل

عمل شاق جدًّا أن تعبر شارعًا كهذا، لا يعترف بأوقات النهار، ولا يتغير بأيام العطلات.

أقف على الرصيف مشدودًا مراقبًا حركة السيارات التى تمرق بسرعة البرق، الواحدة تلو الأخرى، تنعدم أمام عينى أى مساحة إسفلتية، لا ارتطام لعينى غير الارتطام بإطارات السيارات أو بالكاد بمؤخراتها.

تختلط الأشياء بغرابة، أصوات الناس على الرصيف، القطط تهزُّ ذيولها، اقتربت منى تلهث وتنظر لى نظرة رجاء كى أساعدها على العبور.

تقطع أصوات مكبرات الصوت حوار التفاهم بيننا، وتشق أغانى التوكتوك اطمئنانًا كاد أن يأتي.

عبثا أحاول التركيز كى أنتهز اللحظة الآمنة للعبور.

التفتُّ محاولًا العثور على عسكرى المرور ليجلب لنا تلك اللحظة، أراه من بعيد بنظارته الشمسية التى تخفى معظم وجهه، يقبض على الريح بكلتا يديه غير عابئ بإشاراتى المتكررة.

الانتظار يطول والقطط لم تعد تكتفى باللهاث وهز ذيولها، وفى اللحظة التى حاولت فيها المواء، امتلأ نهر الشارع بالكلاب فى طابور طويل.

انتهزت الفرصة وعبرنا الشارع.

على الرصيف المقابل، وقفت. شاهدت القطط - والمتبقى نصف متر على عبورها الكامل - تتوقف وبسرعة البرق ترتد للخلف مشتبكة مع الكلاب فى فاصل طويل من النباح والمواء!

حديث الكهوف

كان يجب أن تموت الليلة. قلت لها: أستطيع الآن أن أحصى عدد النتوءات البارزة فى جسدك، وأن أعرف بكل دقة مقاس ملابسك الداخلية، وأن أصرح لك بما أحبه وما لا أحبه فى جسدك، ورغم ذلك أعترف لك بأنه لم يكن سببًا كافيًا لأن أحبك. عيناك ضيقتان، تضعين فيهما عدستين بألوان مختلفة، ورموشًا ليست رموشها، وتضعين كريمًا على وجهك، حتى الشعر لم يسلم من الإضافات وطغيان العظام واضح على جسدك كله، ومع ذلك أجدنى فى نفس اللحظة التى أنظر إليك مليًّا، أطلعك على صورة مومياء (رمسيس الثانى). عقلى يرفض خرافاتك.

كان يجب أن تموت الليلة.

روحك تسكننى فلا مفر، لكن عجبًا تحيينى وهى الميتة فيك، بعثت بها لمن أهملها فذبلت فيك. إن قتلتك الليلة فكيف أخفى جسدك، أقصد جثتك؟!

اكتشفت الليلة أن لا قبر هناك أستطيع أن أوارى جسدك فيه، ولا مقدرة لدى لشراء قبر، ومقابر الصدقة كاملة العدد.

هل لك، قبل أن تموتى، أن تخرجى من خزائنك النفيسة أجنحتك الذهبية التى أهديتها لك ذات بهجة، وتطيرى بها بعيدا قبل أن تشرق الشمس، حيث الأرض غير الأرض؟!

لماذا تضحكين الآن؟!

هل تسخرين من أفكاري؟!

ألم تحاولى الانتحار أكثر من ثلاث مرات وفشلت جميعها؟!

وأتيتينى ذات مساء تنعتين نفسك بالفاشلة؟!

وَلِمَ تكونين فاشلة فى حضرتي؟

(عاشــق يقتــل عشــيقته).أيكون عنوانًــا مشــوقًا لقــراء الصحــف؟

أيهما أفضل لك؟ الفاشلة أم الضحية؟

لا. لا أوافقـك. .كفـاه افـتراءات أن تكـون لـه عـروس، أو قرابـين. هـو يعطـى ولا ينتظـر، لا يتوقـف، لا يريـد قربانًـا.

إذن بربك كيف أدفنك خبريني؟

ما سر هذا القلق؟

ألمْ تخـبرك مرآتـك – قـط – بأنـك ضعيفـة وشـاحبة؟! وهـذا يعنـى فقـر الـدم وتأخـر دورتـك الشـهرية.

ليـس سرًّا كـى تخفيه.طبيعـى جـدًّا أن تتأخـر لبضعـة أيـام ولا تنتظـم.

هاهــى الســماء، وهاهــى اللحظــة المناســبة كــى ترتــدى أجنحتــك الذهبيــة. ..هيــا طــيرى.

لا أريـدك أن تموتـى هنـا عـلى أرضى، فمهـما حاولـت لـن أسـتطيع دفنـك.

بورتريه

ماالـذى يمكـن أن ينجـزه فى عالمـه الكسـيح؟ كانـت أقـصى أمانيـه –فى السـنوات السـتة الأخـيرة – أن يسـتطيع تحمل نفسـه، وأن يجعـل مـن مـرور الأيـام شـيئا محتمـلا. يتذكـر نصائـح صديقـه القديـم (اجعـل مـن حياتـك لعبـة مـع الوقـت!)، خنقـه الفقـد المتتـالى لوقـود الحيـاة اليومـى، واختفـاء الحبيبـة. تغـير مزاجـه، وعـاش فى درب ضيـق مـن العزلـة.

عنـد أول محاولـة لفـك الاختنـاق وضرب العزلـة، سـاقته ذاكرتـه لمرسـم صديـق قديـم، ذهـب إليـه ربـما يرشـده إلى ملامـح وجهـه الأصليـة، سـأله عـن (بورتريـه) لوجهـه رسـمه لـه قبـل سـنوات العزلـة، ظـلّ يبحـث فى كل مـكان عنـه، ولما أنهكـه التعـب، قـال لـه : أمتأكـد أننـى لم أعطـه لـك؟ أعطيتنـى عـشر الجائـزة فقـط يـا فنـان، واحتفظـت لنفسـك بـه، نظـر إليـه

مليـا، وراح يتحـسر عـلى نـضرة ضائعـة، وابتسـامة سـاحرة مسـلوبة، وتجاعيـد زحفـت فجـأة عـلى جانبـى الرقبـة وعـلى الجبهـة. ومـع ذلـك اسـتمر فى البحـث، وبينـما يشـعل سـيجارته ويهـم برشـف الشـاي،، عـرض أن يرسـم لـه (بورتريـه) آخـر، وفى نفـس اللحظـة، دخـل كاتـب قصـة يبـشر بمسـابقة (متحف الكلمـة الإسـبانية) والتـى جائزتهـا تتخطـى (العشريـن ألـف دولار). قصـة لاتزيـد كلماتهـا عـن مائـة كلمـة. مؤكـد أن الفنان سـينالها، ومؤكـد أيضـا أن تتابـع رنـات تليفونـه المحمـول، لرقـم مجهـول، لم يشـأ أن يـرد عليـه، شـتت انتباهـه، لكـن صاحـب الرقـم ظـلّ يلـح مـرارًا، لا يعـرف كيـف يـرد ولا بـأى وجـه سـيتحدث وقـد تيقـن أن (البورتريـه) قـد ضـاع للأبـد. انـصرف كاتـب القصـة متعجـلًا ممنيًّـا نفسـه بالعشريـن ألـف، حـاول الفنـان أن يقبـض عـلى اللحظـة وأن يسـجن نفسـه فيهـا، وبـدأ فى تدويـن القصـة التـى حملـت عنوانـا (بورتريـه لرجـل خـرج لتـوِّه مـن العزلـة).

مجرد أسئلة

قطرات العرق التى تتسلل من مسامات جلدك مازالت تسكت لسانك كلما واجهتها، تتلصص عبر نوافذ الخيال باحثًا عنها، تتغير النوافذ وبحثك أبدى. الكيان الحزين يئن ويصاحبك أينما كنت، كلما اقتربت لا يترك فيك إلا دموعًا ورعشةً وانتشاءً، تسأل دائمًا كلما انسلت من بين أصابع روحك: هل كنت تقبض على الريح؟

ماذا تريد من الريح إن وجدتها؟ أن تحتسى قهوتك ولطفها يحاوطك وأن تشهد لحظة دنوها منك ثم تستشعر الفقد بذهابها؟

الطريــق إليهــا كان طويــلًا وشــاقًا، أدركــت بعــد طــول العمــر أنهــا أيضــا كانــت تبحــث عنــك عــبر النوافــذ، وتســتمع مثلــك للكــمان الحزيــن.

القصة فى مغارة

كأننا نحمل عرشها، نجلس كل أربعاء حول المائدة، ثلاثة بكل جانب واثنان على طرفيها، نستمع لقصة أو فصل من رواية بصوت كاتبها، يقرأ ونحن له منصتون.

على غير العادة، كنت أتابع الراوى بصعوبة بالغة، شعرت أن دماغى أصبحت كالمغارة، تحتوى على مئات من القصص والمعلومات، بالأمس نمت قليلًا بعد ساعات قلق طويلة، ظللت أفكر فى هذا الموظف الذى مات حسرة لعدم قبول اعتذاره عن (عطسة) غير مقصودة بللت صلعة ورقبة الرجل العجوز فى قصة تشيخوف (موت موظف).

هـل كان عليـه أن يستمر فى تقديـم اعتـذاره بهـذا الإلحـاح؟! وهل قبـل الجنـرال اعتـذاره؟!

أنهـى الـراوى قصتـه، حاولـت، قبـل التحـدث عنهـا، أن أقصهـا عـلى نفسـى، أحـاول جاهـدًا استدعاءها مـن المغـارة. (تحكـى القصـة حكايـة رجـل، حـاول أن يكتـب عـلى الـورق، رحلـة عمـره عـلى أرصفـة الحيـاة التـى امتـدت لأكثـر مـن نصـف قـرن، يريـد تقييـمًا موضوعيًّـا، مـزق الكثـير مـن الأوراق، حـاول مـرات ومـرات وكان سـؤاله الملـح «مـن الذى يجـب عليـه أن يقـدم اعتـذارًا لى عـن سـنوات عمـري؟!».

بـدأت فى تقديمهـا بأسـلوبى، محـاولا اسـتخلاص الدلالات منها .

أوقفـت رنـات محمـول الـراوى تدفـق كلماتـى لتقديـم قصتـه، اعتـذر بابتسـامة خفيفـة واسـتأذن خمـس دقائـق لإنهـاء المكالمـة. أخرجـت مـن حقيبتـى ورقـة وقلـمًا، ورحـت أرسـم ثلاثـة دوائـر متداخلـة (العمـل والأسرة ومجتمعـى الصغـير مـن الأصدقاء)...هـل مـات الموظـف لأنـه لم يجـد

مـن العجـوز تقبُّـلاً لاعتـذاره عـن عطسـة غـير مقصـودة؟!

عـاد الـراوى مبتهجًـا وسـألنى أن أسـتكمل قراءتـى لقصتـه، استشـعرت أن دماغـى فعـل بهـا مـا فعـل مـن إضافـات وحذف للدرجـة التـى أصبحـت أراهـا مليئـة بالفجوات. قلـت لـه: هـل لـك أن تعيـد قـراءة القصـة علينـا مـن جديـد؟

فى نفـس اللحظـة التـى أنهـى فيهـا الـراوى قصتـه، انتفضـت واقفـا وقلـت:

حـان الآن أيهـا الأصدقـاء أن أقـدم اعتـذارًا طويـلاً لنفسـى عـن هـذه الحيـاة!

قصة سخيفة جدًّا

تنفلت أصابعها الواحد تلو الآخر، تتوارى خلف البخار الهابط على زجاج البلكون، تنسل بين شجيرات الزهور النابتة، وتنسل روحها من جسدى، أصرخ وأتألم، وكأن حريقا اشتعل فجأة فيه، أشتم رائحة الدخان. ثعبان أسود ونحيل برؤوس عديدة ينفذ من مسامات ذاكرتى، يفتتها، أصحو من نومى مذعورًا وأصرخ بشدة.

لم تنم إلا قليلاً، وتعجلت العودة، اكتفيت بغسيل وجهى، وارتديت ملابسى متعجلًا وقدت السيارة بسرعة، أطبق الصمت على روحها، ارتطم وجهى بوجهها، فارتد وجهى للأسفلت الممتد أمامى، لم تطلب الاستماع لأصالة كما كانت تفعل دائما فى كل رحلة.

اكتفيت أن أكون منصتًا لذكرياتى، تداعبنى بكلمات رقيقة وتزيح عن كاهلى عبء التزامات مادية، كتبت فيما يشبه القائمة ما تريده من أثاث وأدوات كهربائية، كانت أساسية وبسيطة، لكن الإشارات كانت تعلو وتهبط، تختلط الأصوات وتتبعثر، تعاود أمها تشجيعى فاستمر فى المحاولة.

قالت: الصداع يضربنى، هل لنا أن نستريح قليلًا ونحتسى القهوة؟

بحديقة النوبارية، امتد الحديث لأكثر من ست ساعات، كنت أنصت جيدًا وكثيرًا، وأتحدث ردًّا عليها قليلًا.

قالت: لم أر وجه أبى إلا ناهرًا أو زاعقًا، وكنا لا نرى منه غير وجه متجهم لعين، وعندما كان يقف على باب غرفتي، كان يغلق كل منافذ النور إليها.

شاهين، الرجل الوسيم الطويل كأمى، اهتم بها، وكان ينفرد بها كثيرًا، رأيتها تبكى على صدره، فأغلقت غرفتى على وظللت أبكى.

عشرون عامًا وغرفتى مظلمة، الغثيان يحرق جوفى ومضادات الحموضة لا تفارقنى حيثما كنت، والقلق يجتاحنى والمهدئات تلازمني.

أنا لا أقطع شعرى ولا أهيم على وجهى لأنه تركنى وتزوج بغيرى، يحزننى أكثر أن أعرف بالصدفة، لماذا لم يخبرنى، لماذا لم يكن متحضرًا ويفض ما بيننا ويذهب.

ثمة رجل مألوف الوجه، غامض الهدف، يجلس متربعًا على الأريكة الخشبية التى على يسارى بالحديقة، يلتقط بأظافره بعض بقايا الطعام، بين لحظة وأخرى تتأرجح عيناه ببطء شديد، كأنه يتردد فى فحصى، ثم يثبتهما علىَّ بعناية فائقة.

عيناها زائغتان، بدت كامرأة عرَّاها الخريف، مسحت دموع عينيها وقالت: لا أريد أن أظلمك..هل ترضى بامرأة لا روح لها ولا جسد؟!

تماسكت ونهضت، وبسرعة توجهت للأريكة الخشبية، جلست بجواره، ربت على كتفى وقال :

اتركها يا ولدى وشأنها، لقد كرهت نفسها!

حنين

والصباح يملأ بالحروف والكلمات فجوات الليل كنت تكتبنى واصفًا إياى بأنف طويل مغروس فى زجاج سيارتك الأمامى، وكنت أضع يدى على وجهى منصتًا لأحلامك الحلوة، وسارحًا مع خيالك الرائع. ألسنا نحيي الروح بهذا الخيال؟ الشيء الذى كان يدهشنى فيك أنك كل صباح كنت تقص على ما رأيته أنا فى الليل من أحلام. لم أكن أنزعج من ذلك كما كنت تعتقد،كنت فقط مندهشًا.

بالأمس هاتفتك كعادتى كل مساء، بينما كنت تحشر نفسك بسرعة فى قميصك الأبيض الفضفاض كى لا تتأخر عن موعدك وكنت مقتضبًا فى حديثك، لكنك باغتنى بسؤال اهتزت له أركان وجدانى، سألتنى : لماذا لم تحلم ليلة أمس كعادتك؟ ثم أغلقت الهاتف لتتركنى وقد تحولت الدهشة

إلى قلق من هذا الاستحواذ على أحلامي. فالحقيقة أننى لم أحلم بالأمس.

جئتنى الليلة تشكو الشائعات. كان صوتك حزينًا. وكنت استمع إليك بنصف عقل؛ حيث كان النصف ، قلقًا. قلت إنك تفكر أن تتجاهل هذا الأحمق، الذى ظلّ يسعى لخراب ما عمرته أنت بجهدك من سنين.

قلت لك: حدثنى عن الموت؟ فأفضت وثرثرت كثيرًا لكنك أبدا لم تخبرنى أن الموت الحقيقى يأتى مع موت الخيال فينا.

ولأنى نسيت أن أسألك، كيف كنت ترى أحلامى، وترويها لى فى اليوم التالى؟! قلت لك:

فلنحكِ يا صديقي. ولا داعى لأن تقص عليَّ أحلامى لاحقًا.. سأحكى لك الآن ما أراه أمامي، فلربما حظينا معا بالمشاركة فيها.

دخلت بالأمس بوابات المدينة القديمة، على أبوابها كان يقف الحراس وقد أشهروا كل أسلحتهم فى وجهى، سألونى عن هويتى وعن سبب الزيارة، قلت لهم: أنا

كنت من سكانها، ابتعدت لفترة طويلة واليوم عاودنى الحنين إليها. بعد وقت طويل واجراءات معقدة، سمحوا لى بالدخول، راقبوا كل تحركاتى ورصدت خطوات تتبعنى طيلة وقتى بالمدينة. الحقيقة أننى لم أكن أرغب فى العودة إليها إلا رغبة فى المعرفة، وطمعًا فى التغيير. اشتد الزحام. كنت بينهم كالتائه فى بحر الفكر، أبحث عن فكرة حلوة تنير ليلى الطويل وتحجب أحلامى عنك فلا تقصها على فى الصباح. أنا لا أحلم الآن، بل أسير بلحمى وشحمى بطرقات المدينة وأدون ما أراه. فى أقصى الجانب الشرقى من المدينة كانت هناك أكوام من الكتب التى أنارت الكون يومًا ما، رأيتها وقد غطاها الكرب وسكن صفحاتها الموت، حاولت لمسها فهاجمتنى أسراب من الغربان ظلت تنعق فى وجهى وتصدر أصواتا جنائزية، بدت لى الغربان وكأنها نسوة متشحات بالسواد يولولن ويندبن ويشققن صدورهن حزنا على سطور كتبت من نور، واليوم تعتم صفحاتها. وقف الحراس يراقبون ما يحدث وعندما لاحظوا أنى قد أطلت الجلوس، جاء كبير الغربان وأراد أن يبعدنى، انشقت السماء وخرج منها نسر رهيب

وبكل قوته انهال بمنقاره على وجهه، ففقأ عينه اليمنى وفر بقطعة لحم بيضاء كانت تنزف فى منقاره ووفررت أنا أيضا خشية الهلاك وتركته يصرخ من آلامه. أخذت أنفاسًا عميقة واستجمعت كل قواى ونظرت إلى آخر شارع طويل ممتد يقطع المدينة ويشطرها نصفين. وقفت. نظرت إلى أعلى. طالعت بعض نسوة المدينة يقفن فى شرفات بلا نوافذ ويهتفن بكلمات بدت لى غير مفهومة، كأنهن ثريات معلقات على الشرفات. فجأة انشقت الأرض وامتلأ الشارع بالباصات، تقافزن فيها وهبطن إلى مكان فى وسط المدينة حيث تجمعن هناك ورفعن الرايات الحمراء، فى جانب من المظاهرة سمعت امرأة تقول : لم يعد شرف المرأة فى نصفها الأسفل... شرف المرأة الآن فى نصفها الأعلى!

انفضت المظاهرة على عجل بعد أن ساد اللغط حولها فانصرفت قبل الزحام.

خلف الشارع الرئيسى، كانت مجموعة أخرى من النساء، رأيتهن وملابسهن كلها السواد، عقدن جلسة لمحاكمة الممثل عادل إمام وفى النهاية قرروا إعدامه. لم

أستطع حينها الصمت يا صديقى، فاعترضت وبشدة على هذا الحكم.

فى تلك اللحظات كدت أن أهلك لولا أن انقضَّ النسر الذى فقأ عين الغراب؟! التقطنى من بين أيديهن. رحت فى سبات عميق بعد أن وضعنى النسر تحت شجرة صفصاف على ضفة النهر. أفقت على صوت ينادى على، صوت جاء من الأعماق ورأيتك هناك على الضفة الأخرى للنهر تحمل تلك الكتب التى كان قد غطاها الكرب تحاول أن تزيل كربها، انفرجت أساريرى عندما رأيتك. . قلت : تعال اعبر النهر، أنا أنتظرك: لا أعرف العوم، فهل لك أن تأتى لتأخذ بيدي؟!

وبينما نحن كذلك لا نعرف من يأتى للآخر، جاء النسر العملاق وقد حمل بجناحيه حنينًا، جاءت كالحلم الجميل الجديد، تبتسم بجنون وتقول: سأظل معكما للأبد، فحملها النسر بمنقاره وحمل كل منا على جناح من جناحيه و حلّق فى السماء.

القسم الثانى

سرير غريب

سرير غريب

غرفته بشقة المصيف لا يشغلها غير سبعة أيام متفرقات فى العام، فى اليوم الأول، لم يجد سوى العنكبوت صديقةً له، وفى حديث ودى قال لها: لا تظنيننى بهذه الصلابة، أنا أضعف منك، اهتزت خيوطها التى انتهت توًّا من صنعها برشاقة ومرونة فبدت كأوتار الكمان، لكنها جلبت له لحنًا كله شجن...فسألها :هل تسمعيننى؟ صنعت لنفسها فى المنتصف سريرا من خيوط كالحرير، واستلقت تنتظر فريستها، كان السرير معلقا بسقف الغرفة فوق سريره، مد نظره، وبسابته رسم خطًّا عموديًا يمتد من سريرها لسريره، فانتهى لأسفل سرته بسنتيمترات قليلة، فاهتزت خيوط البيت مرة أخرى وأمسى اللحن حزينًا، فغنت نجاة: وما حياتى أنا إن لم تكن فيها؟

مـرت شـهور ونوافذهـا مغلقـة، وقطـاره يمـر بـكل المحطـات، فـلا هبـط مـن القطـار ولا اسـتمر لآخـر المشـوار. يقتلـه هـذا الكابـوس، فى الهزيـع الأخـير مـن الليـل، تـكاد أنفاسـه الضيقـة تميتـه، ينتفـض مـن فـوق السريـر وآخـر مـا سـمعه هـو صـوت هـذا الارتطـام المهلـك، بـاع السـيارة، قـضى مشـاويره عـلى قدميـه وبالقطـار، تأففـت وقالـت: يـا رجـل كيـف أسـير بهـذا الكعـب العـالى؟ أتريـد لى السـقوط؟!

مازالـت العنكبـوت تسـتخدم أرجلهـا الثمانيـة الصغـيرة فى مـدٍّ وتنسـيق الخيـوط، حتـى اكتملـت الشـبكة تمامًـا.

أزعجـه تهكمهـا عليـه، عندمـا حـاول أن يقنعهـا بالسـير أمامهـا ليشـكل ظهـره حائـط صـد لـو مالـت للأمـام.

كابـوس التوقيـع بالفورمـة فى البنـك كان أشـد وطـأة مـن كابـوس الاصطـدام، لـذا كان أول المحتفلـين بإصـدار الفيـزة الحكوميـة، لم يسـتطع ولـو مـرة واحـدة أن ينسـخ توقيعـه طبـق الأصـل، ورغـم امتعـاض موظـف البنـك، كان يبتسـم ويقـول لـه: ألسـت أنـا فى جميـع الأحـوال وماثـل أمامـك وببطاقتـى الشـخصية؟!

حـاول مسرعًـا جلـب كرسـى مـن الصالـة، يضعـه فـوق السريـر، يقربـه مـن عـش العنكبـوت، لينقـذ حـشرة صغـيرة جذبتهـا الخيـوط اللزجـة، فأوقعتهـا فى الشـباك، تأخـر قليـلًا، وهـذا القليـل كان كفيـلًا بـأن تمتـص العنكبـوت الحـشرة، تاركة غضاريفهـا خـارج العـش، اختلـت إحـدى أرجـل الكرسـى، فتمايـل جسـده، كـما تمايلـت فى الشـارع الرئيسـى أمـام البنـك، عندمـا انفصـل الكعـب الأيمـن الطويـل المدبـب، فبـدت كالعرجـاء تقبـض بـكل أصابعهـا عـلى المرتـب وثمـن السـيارة المباعـة. شيء مـا يهاتفـه بـأن رغبتـه فى أن يجـرب الوحـدة لـن تتحقـق، عندمـا لامسـت أصابعـه إحـدى الأرجـل الثمانيـة للعنكبـوت.

وجه آخر للغواية

مـن شرفـة منـزل بُنـى عـلى طـراز إيطـالى وقفـت تطالـع شـارعا مزدحمًـا بوجـوه البـشر، وجـوه تصنـع الأمـل وأخـرى فى طريقهـا للوصـول لسـعادة تبـدو ممكنـة، ووجـوه تتسـكع فى عيـون الآخريـن، ووجـوه يائسـة ومحبطـة. خـارج الشرفـة كل شيء ممكـن ومتـاح، تبـدو عـروس المتوسـط وكأنهـا عـلى موعـد مـع كل البـشر تتقمـص جنـة سـاحلية وتبـوح بأسرارهـا لـكل زوارهـا.

عيناهـا فراشـتان قلقتـان تحومـان عـلى كل شيء، أرهقتهـما تحريـكا يمينـا ويسـارا. فى السادسـة سـيعود الحبيـب الغائـب لأكثـر مـن عـشر سـنوات، خلالهـا حلمـت بزفافهـا عليـه، سـيكون الحـدث الأعظـم فى الاسـكندرية عـلى مـدار تاريخهـا. أعـدت كل شيء، رصـت الملاعـق والأطبـاق، نسـقت المقاعـد، موسـيقى «عمـر خـيرت» التـى يحبهـا تصـدح فى كل مـكان فى

الشقة، زينت الجدران بأثمن اللوحات يتوسطها من كل جانب صورة ضاحكة له.

جلست وجسدها ملتهب رغم نسائم البحر وبرودة مكيف الهواء، تنتفض أوردتها ويزدحم صدرها كلما تحركت عقارب الساعة، عشر سنوات أو يزيد، غاب عنها وإن لم يغب صوته أو صورته عبر «سكاى بى». تتحسس صدرها بكلتا يديها، ثماره مازالت ناضجة تنتظره أن يقطفها، تخاطبه : هذه كنوزى حفظتها لك، ولك وحدك أهبها !

أرهقتها كثرة الحركة، جابت الصالة ذهابًا وإيابًا، نسقت اللوحات مرات ومرات، اطمأنت على الأطباق والملاعق والمقاعد عشرات المرات، اندفعت إلى المرآة، طالعها وجه ملائكى التكوين ونحر أبيض حليبى سطع من خلف عقد جميل، شفتان ورديتان متمردتان تهمسان بشوق وتسألانه أن يمتص رحيقها، خصلات شعر أسود حريرى تتمرد على منكبيها فتنتقى له أجمل الأثواب. تجلس فى الصالة تضع ساقًا على ساق فتجاهد نفسها، تخاطب نفسها: لم يتبق غير القليل ويأتى، تغمض عينيها، تسحبه إليها برفق وتوددوتحيط به بكل أذرعتها الظاهرة والباطنة، فتغرقه فى طيات

زمن جميل أوشك على الانقراض، ينصاع لها ويذوب فى نعومتها. ذهبت للمطبخ، أعدت فنجانًا من القهوة، صبت عليه القليل من الخمر المعتقة، التهمته سريعا، وقعت عيناها على قعر الفنجان، رأت صورة لوجه رجل، ظنته لأبيها، تذكرت غرفته التى انعزل فيها آخر أيامه، لا تعرف على وجه التحديد لماذا تحاول فتحها الآن، رغم مضى كل هذه السنوات، دلفت إلى الغرفة بتؤدة، كل شيء يبدو كما هو، غير أن عنكبوتًا نسج خيوطه فى السقف المقابل لسريره، وحشرة قذرة وحيدة عالقة به. أطفأت أنوار الغرفة، وأغلقت بابها ممنيةً نفسها بتنظيف السقف بعد حين.

عاودت الإطلال من الشرفة، رأت البحر وقد ابتعد كثيرا، يلطم وجهها رائحته التى انسلت إليها مع روائح البحر والناس. رأته متأبطًا امرأة أخرى على حافة الشاطئ أمام شرفة شقتها. فتحت الغرفة مرة أخرى، ألقت بنفسها على سرير أبيها، وهى تنظر لسرير العنكبوت المواجه لعينيها،استسلمت لنحيب عميق، لا تكف فيه عن النهنهة.

عطر الفقد

هاتفته: سأنتظرك بالمطار، رجاء أن تضعها فى حقيبة اليد.

التقينا للمرة الأولى مصادفة، فى مركز المدينة للتسوق، كانت تقف أمام ركن العطور ومستحضرات التجميل، أربعينية تميل للسمرة، نحيلة، لا فارعة الطول ولا هى بالقصيرة، يتهدل شعرها الأسمر الناعم على كتفيها ويصل إلى نهاية عظمتى لوح الظهر، تمسك بيديها علبة كريم لتبييض البشرة. لا أعرف لماذا ملت عليها هامسا :

أعتقد أنك لست فى حاجة إليه، تبدين هكذا أجمل وأروع.

على فكرة، لست سمراء وإنما هى شمس أغسطس الحارقة.

لم أعلق بشيء، واكتفيت بنظرة إعجاب طويلة وعميقة، ثم مرقت فى الممر متجهًا لرف العطور، معطيًا ظهرى لها. شعرت بوقع أقدامها خلفى، فكأنما هى لحن قديم أسمعه بصوت محمد قنديل.

أهدتنى ابتسامة رائقة هادئة، وبصوت كالهمس سألت: عن أى العطور تبحث؟!

«سانت لوران».

إنه عطرى نفسه، لكنه عطر حريمى، قالتها وقد انخفض صوتها أكثر، قلت كمن يقرأ رواية جيدة وكاملة ويعكف على مفتاح قراءتها دون أن يقفز بين سطورها ويفقد التركيز معها: هل تصدقينى أننى كنت أبحث عنها كى أهديها لك؟!

قد لا يمت كلامى هذا للواقع بصلة، وقد يفسر على أنه من هذا الكلام المعسول الذى يراود به الرجال النساء عن أنفسهن.

وجدنا نفسينا على مقهى شيك بالمركز، ومشروبنا المفضل هو القهوة التركي.

تبادلنا الحديث، وسجل كل منا اسم ورقم ، على محموله.

قلت لها: لا ينقصك شيء، وجهك أنثوى ومثير، وجسدك رائع.

قالت مودعة: باى سأتصل بك بالليل.

«أول مرة أقف أمام المرآة عارية تماما».

أول مرة أميل إلى امرأة لا أعرفها وأهمس فى أذنيها بكلام جميل .

«أتأمل جسدى وكأنه جديدٌ علىَّ، وأفرد شعرى على وجهى».

شيء ما لا أعرف أن أحدده، هو ما جعلك استثنائيًا فى سلوكى مع المرأة.

« استدرت لأرى جسدى من جانب واحد، ثدى مكور ثائر، وردف مستدير ناعم. ..لولاك ما اكتشفت هذا الجمال»

قتلنا كل المراكز بحثًا عن هذا العطر، قال لنا مندوب الشركة: لقد توقف استيراده مؤقتًا. سألت صديقى المغترب عنه.

قالت: هو بالنسبة لى بوابتى للحياة، بدونه لا أستطيع دخولها أبدًا.

جلسنا تحت سماء واحدة، افترشنا الرمل، وواجهنا موج البحر، انتحرت الشمس على صفحة آخر مياه زرقاء بأقاصى البحر، رحت أجاهد القمر كى لا تبتلعه عيناها، حركت جذعى قليلًا، فلامست شفتاى خصلات شعرها التى طيرها هواء البحر، يداها تعبثان بالرمل، وتبحثان عن صخور صغيرة وثقيلة، قلت: وماذا تفعلين بها؟!

ما أجمل أن تسحب أصابعك من الرمل، وأن تملأ جيوبك بالصخور لتعانق البحر ثقيلا! تحسست حقيبتها، وبينما كنت منشغلًا بالبحث عن زجاجة العطر، التى وجدتها فارغة، كانت قد قطعت ما يقرب من عشرة أمتار فى عمق البحر.

عتمة الأشياء

يودع الخريف ببرود شديد، واصفًا إياه بالفصل السخيف، رغم أن ملامحه مازالت عالقة به، ممنيًّا نفسه بشتاء دافئ لطيف. توقف أمام باب الشقة، لاحظ أن خشبه تآكل، لم يعره اهتمامًا، لكنه فوجئ بحائط معتم خلفه مباشرة، لا يفصله عنه غير بضع سنتميترات.على يساره لاحت ثلاث درجات لسلم لم يكن موجودًا من قبل، تحرك وبدأ بوضع قدم واحدة على أولها، وانحنى يدقق النظر.

كيف كان يتسع هذا الممر الضيق لتلك الاحتفالية باستهلالتها الثلاث، الأحضان الدافئة، والقبلات الحانية، والضحكات الصافية. وكيف كان يتسع لفنجان القهوة يشربه بمذاق رائق وروح شفافة، هل هو نفسه الممر الذى كان يفضى برحابة إلى النسيم والشمس وشجرة الفيكس

الضخمة، تتراقص تحتها لقيمات الخبز الجاف وعيدان السريس، وفحول البصل الأبيض، وقطع الجبن القريش، وحكمة الكبار، وأصدقاء الطفولة. كان بيتًا شرقيًّا، تطل شرفته ومعظم نوافذه على مجرى النهر الصغير الهادئ.

ناما متعانقين فوق سرير، صنعت ملاءته من ورق الورد الأحمر القاني، ورغم ذلك كانا يشعران بالبرد، ازدادت التصاقا به، ودست رأسها فى صدره، نومها العميق أتاح له التفكير بجدية فى هذا الحائط المعتم والسلم ذى الثلاث درجات، كان يشغله الحائط أكثر، نهض يبحث عن علبة السجائر، لا يعرف أين وضعها؟ ربما فى حقيبتها..لأول مرة يحاول فتحها، تردد فى البداية وقال لنفسه: لا يليق بى فعل ذلك، علىَّ أن أستأذنها أولاً، لكنه هذه المرة لم يستأذن، عاثت أصابعه فى كل محتوياتها، يتفهم وجود مرآة صغيرة ومشط وصباع أحمر شفايف وكريم أساس وزجاجة عطر، لكنه تعجب من وجود مفكرة صغيرة، انشغل بها وأهمل البحث عن الولاعة، لكنه فجأة شعر بحنين للبيت الشرقى وازداد انشغاله.علبة سجائرمختفية تقوده إلى حائط معتم لم يكن موجودًا من قبل، وولاعة تائهة تقوده

لمفكـرة امـرأة ينـام معهـا عـلى سريـر واحـد فى بيتهـا، تسـجل فيهـا اسـمين لرجلـين لا يعرفهـما، فمـن يكونـا(وحيـد سـيف و فتحـى عبـد اللطيـف)؟!

عـاد إلى جوارهـا، أسـند ظهـره لظهـر السريـر، أحاط رأسـها بذراعـه الأيـسر وراح يقـرأ المفكـرة، اكتشـف أن ثـلاث ليـالٍ كاملـة قـد مـرت وهمـا فى هـذا المشـهد، سـجل تقويـم الموبايـل العـاشر مـن ديسـمبر، نهـض يبحـث عـن فاتـورة الـشراء ليلـة وصولـه لشـقتها، كانـت تريـد حـذاءً بنيًّـا، برقبـة طويلـة تنتهـى قبـل الركبـة بقليـل، سـهلت عليـه المهمـة، فأبلغتـه بـكل التفاصيـل، كل مـا عليـه هـو أن يعطـى البيانـات للبائـع ويذكـره بالمـدام التـى جـاءت قبـل أيـام لحجـزه، إنـه السـابع مـن ديسـمبر، لـولا سـخونة أنفاسـها الضحلـة التـى تخـرج مـن فمهـا لظّـن أنهـا ماتـت.

أعـاد قـراءة المفكـرة مـرات ومـرات، وفى كل مـرة يتأكـد أنهما شـخص واحـد، لكنـه لا يعـرف لمـاذا تخلـط بينهـما، هـل لأنهـما صديقـان؟ ورغـم تأكـده، لم ينـف فى قـرارة نفسـه احتـمال أن يكونـا اثنـين وأحباهـا فعـلا، عـلى أيـة حـال «مافيـش مشـكلة «، هكـذا حـدّث نفسـه، لقـد سـجلت تواريـخ انتهـاء العلاقـة

معهما، وأقربها مرّت ست سنوات كاملة على نهايتها.

فى الصفحة التى تلت ذلك، كتبت أعلاها وفى المنتصف «ج.ج»، وكتبت أسفلها «جحيم الحب».

نهضت متثائبة، تضع يديها على رأسها، وترجرجها كأنها تعيدها للوعى، رأت المفكرة، لكنها لم تشأ أن تحدثه عنها، تركته وذهبت للحمام، غرق فى عرقه، رغم بدايات الشتاء، وعندما جف سافر فى رحلة حياته القصيرة معها، حكمتها الصدفة، وشيدت أركانها الأقدار، كان يظن أن شوطًا طويلًا من الرحلة قد قطع، لكنه الآن يدرك أنهما توقفا فجأة عند «ج.ج»

خرجت من الحمام عارية تمامًا تصرخ: صرصار! صرصار!

نادت بأعلى صوت وبعصبية شديدة، تدك الأرض بقدميها:

جون. ..اقتله. .أرجوك. .اقتله.

لا ذنب ارتكبه يا هاله كى أقتله.

إن قتل صرصور قذر ليس جريمة.

تظاهر بالاستجابة، واقتحم الحمام، أشارت له من بعيد إلى مكانه، استشعر أن الصرصار يرجوه ويستعطفه، أغلقت الباب، وتابعته بصوتها: هيه قتلته؟ اصبرى خلاص سأنال منه أهو. ..أمسكه بين أصابعه بحنو وفتح بهدوء نافذة الحمام، وقبل أن يطلقه ويغلقها، قال له بهمس: «متجيش هنا تانى!»

خرج يتمطع متظاهرًا بالانتصار.

عاد إلى جوارها، أسند ظهره لظهر السرير، ثم تزحلق ليعانقها، يحيطها بذراعيه، قبل تلامس الشفتين المرتعشتين قالت:

الآن أستطيع تحمل ذاتى.

سحب سوداء

كان قـرارًا صعبًـا أن أقـود سـيارتى بعـد آذان الفجـر مباشرة. لم أنـم، ظللـت طـوال الليـل فى حديـث الذكريات:

أنـا بامـوت يـا هشـام، تعبانـة، شـكلى بامـوت خـلاص، مـش هسـامح نفسـى لـو تعبـت نفسـك وجيـت.

لـو ماكنتـش جنبـك دى الوقـت يـا هنـد، هاكـون جنبـك امتـي؟! انـا اللى مش هاسـامح نفسـى لو سـيبتك تعبانـة ونمت.

طيـب بـس خليـك معايـا، وافضـل كلمنـى لحـد ماارتـاح، انـا بطمـن قـوى وانـت بتكلمنـى.

ماتضيعيش الوقت، أرجوكِ سبينى ألبس وأجيلك.

قولى بس آخد إيه، الألم بيقطع بطني.

أكاد بالفعل أجن، ماهذا الخواء؟! ولماذا تتلاشى الأشياء؟ الأشجار فقدت قيمتها، ومن ثم تلاشت، الطيور هجرت أعشاشها، لم تكن مبهجة لكونها طيورًا حتى لو كانت أشكالها جميلة، البهجة تنبع من الغناء، حبيبتى لم تعد تغنى، تتألم فقط وتنهار. امتلأت السماء بسحب سوداء تحجز ضوء النهار المولود توًّا.كان عليَّ أن أظل مشعلا كل كشافات الإضاءة؛ لعلها تعوض تعثر ميلاد النهار.

فتحت شنطة سيارتى أبحث عن أى حقن مسكنة وأدوية مهدئة وسماعتى الطبية وجهاز الضغط وخافض اللسان وكشاف ينير الحلق ومدخل البلعوم.

الانهيار كان تامًا؛ جسديًّا ومعنويًّا وروحيًّا.

كأن صندوقًا عتيقًا قد فُتح فجأة، خرج أهالى القرية غير عابئين بأجواء الحرب، تجمعوا حول حطام الطائرة الصهيونية الباغية التى سقطت بعد مطاردة عنيفة وشرسة من نسر مصرى يحمل فى قلبه إرادة فولاذية، كان نصيبى من الحطام قطعة صغيرة من جناح الطائرة، احتفظت بها لنفسي، ثم قدمتها لها فى لحظة فرح حقيقية،

نقشت عليها (ذكرى سقوط أسطورة جيش القتلة).

قالت وهى نائمة فى حجرى، على سريرها وأنا أمسد شعرها الأملس مثنيًا ظهرى قليلاً ليحتضن صدرى رأسها، أنه الحب الوحيد فى حياتها. تبادلنا الإغفاءات من قلة النوم، وكنت فى صحوى، أنقل رأسها بهدوء إلى الوسادة اللينة، ثم أنظر من النافذة، الناس يفترشون الشارع بأنين مكتوم، والسائرون منهم كمن يسيرون على المياه، وقليل منهم كمن يغوص فى بحر من الرمال، وكنت فى غفوتى أرى السحب السوداء لا تتزحزح قيد أنملة من فوقنا.

بدأ الألم يزول تدريجيًا لكنه أبدًا لا يتلاشى، يظل يضرب فى الروح ويذهب ويعود، لكنه فى كل مرة يأتى يتخلص درجة أو درجات من وحشيته.

كررت على مسمعى ما استنتجته سابقًا: الانهيار يكاد يكون شاملًا جسديًّا وروحيًّا.

قلت بشخصية الطبيب: عليك أن تبدئى، اقرئي.

أرجوك اقرئى وتذكرى قبل أن تأكل السماء البشر.

من النافذة أحكى له

ساقتنى الصدفة وحدها لأن أجاوره بالغرفة. لم يترك الحادث شبرًا فى جسده إلا وأصابه، بكسر، أو كدمة، أو جرح، أو فقد وظيفى. أصبح هو والسرير كتلة واحدة متجمدة. معظم جسده مغطى بالشاش والجبس، بدا وكأنه مومياء مصرية قديمة محنطة. لم يبن منه غير فم صغير، داخله لسان يتحدث، وعينين تتحركان ببطء وسكون. بعد إلقاء تحية الصباح وأمنياتى له بالشفاء، لمح على خدى الأيمن ورمًا يتسلل من الفك باتجاه العين فقال بصوت حزين: سلامتك.

لم يكن أمامى غير الانصياع لأوامر جراح التجميل بإزالته وفحصه باثولوجيًا للتعرف على نوعه.

وأنا أهم بالجلوس على سريرى، فاجأنى بطلب غريب: ممكن توصف لى عبر النافذة ما يحدث بالخارج؟

صمتُّ لبرهة ثم تحركت تجاه النافذة ووقفت أرمى ببصرى إلى أبعد مدى، رأيت عمارات شاهقة مغطاة بالأتربة وبالدخان تحيط بالمستشفى من كل جانب، ورأيت الناس يتحركون بسرعات فائقة فى كل تجاه، وآخرين كمن يقفون فى طوابير طويلة، ومشاجرات جانبية هتكت فيها الأعراض، وسيارة تدهس قطة، وكلابًا تنبح على لاشئ، وأفراد أمن يتسامرون ويعلقون الناس على البوابات، وسيارة شرطة اتخذت من شجرة (فيكاس) مظلة لها، وراح الشرطيان يطاردان العصافير كلما همت بالهبوط. ظلت العصافير تكرر المحاولة، ولما أنهكها التعب سقطت كالجثث تحت نعالهما.

نظرت إليه مبتسمًا وقلت له: اسمع يا سيدى، تحيط بالمستشفى من كل جانب عمارات شاهقة، بيضاء، تضوى ولامعة. والناس فى الشوارع متحابون، يأخذون بعضهم بالأحضان، يسيرون بهدوء مطمئنين ومنظمين وكذلك السيارات، ولا أثر لكلاب أو قطط، وأفراد الأمن يسهلون

للنـاس دخولهـم وخروجهـم ويبتسـمون فى وجوههـم، وهنـاك سـيارة شرطـة تجـوب الشـوارع المحيطـة وتسـأل النـاس عـن أى مسـاعدة تقدمهـا لهـم، والعصافـير تسـبح فى سـماء صافيـة، وتهبـط بسـلام فـوق أعشاشـها.

انفرجـت أسـارير الرجـل، ودبـت حركـة مـا فى معظـم جسـده وابتسـم. ثـم قـال: ألم تـر شـيئًا آخـر؟ قلـت: طائـرات الأطفـال الورقيـة التـى زينـت سـماء العـمارات، أنقـذت العصافـير المجهـدة، ومـدت لهـا ذيلهـا فتعلقـت بـه، وطـارت بعيـدًا بعيـدًا عـن سـيارة الشرطـة.

بين مدينتين

المسافة القصيرة التى يقطعها، بسيارته مرة واحدة أسبوعيًّا، ربما كانت لا تعنى شيئًا للكثيرين، لكنها تمثل له حضورًا رائعًا تكتمل به روحه. لعشر سنوات متتالية كان يتصل بها ليؤمن هذا السفر الذى كان يشبه الإبحار بين مدينتين مرسومتين على وجهه، مدينة كالحة متجهمة صارمة، وأخرى يخفيها فى أعمق منطقة فى روحه عندها.

لم تدر زوجته أن ضابطًا عسكريًا على وشك تسلم قيادة وحدة شرطة عسكرية فى بنها، يحتاج ككل الشباب أن يتحرر فى غرفة نومه الشرعية.

فى اللحظة التى كان قريبًا جدًّا من الانتشاء معها، قتلت أحلامه عندما قالت بوجه متجهم، نافرة من رغبته بتبادل مداعبة الأعضاء تقبيلاً :

هـذه الأعضـاء خُلقـت لتـؤدى دورهـا الوظيفـى فى التناسـل فقـط !

ارتطمـت عينـاه بعينـى إلهـام ابنـة عمـه التـى جـاءت للتهنئـة والمباركـة، كأن نسـمة عابـرة حملتهـا إليـه، جـاءت بهـا لتجلـس فى الصالـون الذهبـى كملكـة متوجـة، بينـما يشـتم رائحـة نـار الغضـب التـى هبـت مـن موضـع زوجتـه بالغرفـة الأخـرى، نسـمة أعادتـه لزمـن بعيـد، يـوم أن حمـل جـده فسـيلة شـجرة المانجـو مـن الإسـماعيلية ليغرسـها فى بيتـه الريفـى القديـم، لتظلـل بعـد اكتـمال نموهـا عليهـما، جلـس صامتًـا أمامهـا عـلى الكرسـى المقابـل، ناظـرًا فقـط لعينيهـا اللتـين تشـبهان حبتـى مانجـو، يستشـعر بلـذة وعنـاق معهـما، كانـت تجمعهـما تحـت ظـل كثيـف، مـال عـلى الركـن الشـمالى لسـطح البيـت ملاصقـا لعـش الطيـور، لم يكـن يـدرك معنـى إصرارهـا عـلى تنـاول حبـات المانجـو داخـل العـش، وعندمـا سـألها أجابـت فقـط بابتسـامة خجولـة، أعقبتهـا بدفـن رأسـها فى صـدره النحيـل.

لم ينـس لـلآن، وهـو يعيـد النظـر لعينيهـا عـشرات المـرات، أن وجهـه قـد تغـير، يـوم أن ظـلّ يبكـى لسـنين طويلـة عـلى العـش المهجـور، بعـد أن فـرّق المـيراث الملعـون بـين الأخـيّن.

عشر سنوات لم يتغير شيء، يستيقظ مبكرًا جدًّا، فى الحمام يهيئ جسده كما لو كان فى كل مرة يقبل على ليلة زفاف جديدة، يقود سيارته الملاكى، وقد بدا أنيقًا، ومتعطرًا بعطر هادئ مثير بلاضجيج، يصل إليها فى موعد لم يخلفه أحدهما أبدا، يتوحدان معًا، ويدخلان فى بعضهما البعض بحرية وتلقائية، ودائما إجاباتها على كل الأسئلة:

من عينيَّ يا روحى، وحياتك ما تزعل نفسك على شيء .

تأخر هذه المرة لدقائق قليلة، عاد خلالها لوحدته، نسى هدية عيد ميلادها، ظل يلوم نفسه ويعنفها، لكنه حاول أن يحافظ على حالته، واحد كيلو متر أو مايزيد قليلًا ليس بمشكلة، مرق سريعًا من أسفل كوبرى الشموت، واستدار وأخذ يسير فى اتجاه بنها، مرّ من أسفل كوبرى الزقازيق ومنه إلى نفق المنشية، التقط الهدية سريعًا من درج مكتبه، واكتفى بابتسامة خفيفة رد بها على سؤال الضباط وعسكرى مكتبه :

خير يا فندم؟!

انطلق هادئًا، أنيقًا معطرًا كما كان، أدار قرصًا مدمجًا مسجلًا عليه موسيقا «لامور»، دخل تمامًا فى الأجواء الرومانسية، وبدأ التحليق والطيران باتجاه عش الحرية.

فجأة توقفت معظم السيارات، بينما تحركت بعضها ببطء شديد، ظنّ أن ثمة حادث مرورى معتاد على هذا الطريق، وعندما تحرك قليلًا، لاح له كمين شرطة المرور.

لا يعرف لماذا أصر الأمين على سحب رخص سيارته، رغم أنه عرّفه بنفسه؟ ولماذا أصر بوقاحة على أن يغرز وجهه القبيح الذى كاد أن يجتاز حدود النافذة من الداخل؟ ولماذا قهقة بتعجب وسخرية من جملة «العقيد أحمد فهمى قائد وحدة الشرطة العسكرية».

ظلّ يحاول المحافظة على حالته بقدر ما استطاع حتى اجتازت رأس الأمين النافذة سنتميترات قليلة، وبعد أن طلب منه أن يرسل ضابطه ليحدثه، فقد الحالة، وازاح وجه الأمين بعنف ورده للخارج، لمحه ضابط الشرطة، فأسرع نحوه مشهرًا سلاحه فى وجهه، وآمرًا بصرامة أن يهبط من السيارة.

اتصل بوحدته، فزمجرت وفى سرعة البرق كانت فى الموقع، قوامها مدرعة مدججة بالسلاح وسيارة جيب بها أربعة أفراد وضابط مسلحين، فى مشهد بدا وكأنهم أسرى حرب، كان ضابط الشرطة والأمين وفردى أمن يُقْتَادون إلى الوحدة العسكرية، وبين لحظة وأخرى كان العقيد أحمد ينظر من نافذة مكتبه، آمرًا جنوده بمزيد من التكدير لأفراد الشرطة، فيما موبايله يهتز حاملاً رقمها .

حوارات مقتضبة

(الحوار الأول)

رحلت هند، وأتت مريم على هيئة عصفور يحوم فى صدره.

قال له : لو كنت تعرف تغنى ما رحلت.

(الحوار الثانى)

قال لهما صديقهما الرسام.

ماذا تريدانى أن أرسمكما؟!

سارعت بالرد :-

ارسمنى فراشة حائرة.

وأنت يا صديقى ماذا تريدنى أن أرسمك؟!

رغوة صابون خرجت من بين يدى امرأة!

(الحوار الثالث)

قالت: لماذا يبكى الياسمين؟!

قال :دموع الصباح تغسل أحزان الليل.

العائدون ليلاً

كل ليلة تصحو القرية على كارثة تحدث، إذا تأخر ورجع البعض من هذا المدّق بعد أن يرخى الليل سدوله.

مدّقٌّ ضيقٌ جدا بالكاد يكفى أن تسير فيه حمارة وعلى راكبها أن يتحمل أشواك أسوار الحدائق على جانبيه، جروح بسيطة وكدمات على جانبى الوجه أو فى الذراعين شيء يحتمل. السير فيه كان حتميًّا للكثير منهم، تعود أهل القرية على الكوارث، ومن فرط تكرارها، لم تعد تؤثر فيهم، لكن عندما تطول الكوارث ولدّى هنداوى، فلابد أن يصل الخبر للجميع.

تأخر الأول فى مضاجعة عزيزة الجحش، فوجدوه جثة على المدّق، مع أول ضوء للنهار. أما الثانى الأصغر، فقد تحالف مع سيد الأعرج صاحب مقهى الحبايب، ومولّه بالمال ليذهب للمنطقة الحرة لشراء فيديو وشرائط أفلام

إباحية، وبعد العصر يعدون العدة لليلة ماجنة، فى العشة الخشبية فى منتصف أحد حدائق الموالح، على أطراف القرية، يُعدون فيها سندوتشات الحواوشى، ويبردون زجاجات البيرة. امتدت السهرة، وسعد الجميع إلا هو، فتركهم وهمّ بالعودة للبيت. ابن يموت وآخر يُجنُّ وهنداوى لسانه معقود من هول الصدمة لا يدرى من أمره شيئًا.

كان جنٌّ يسكن قلب الطريق ينفرد بالعائدين ليلا ويسلب أعمارهم وإن رحمهم تركهم فى الحياة لا عقل يعصمهم أو ينير طريقهم، فى كل مرة يخرج هنداوى مناديا:-

يا ناس كم مرة قلت لكم هذا الطريق لا يصلح للعودة ليلاً، ومن يتأخر منكم فليصمد أو يسكت !

كان لابد لهم من العودة، آلاف الأفواه الجائعة فى انتظارهم، من يملك حق الصمود ويتحمل مسئولية إسكات آلاف الأفواه ألا يكفيهم تحمل الجوع حتى يموتوا من الانتظار؟ لم يعد بحاجة لمأساة أخرى وهو يرى زينب وقد سُلبت أحلامها كما سُلبت أحلام كل البنات. كأن خرسًا قد ضرب الألسنة، مصيبة هؤلاء الناس

إنهم عاجزون، الأب مفقود والأخ لن يعود والشمس لم تعد تشرق بالحب منذ أن اخترق هذا اللعين قلب المدّق واستوطنه. يرى آلاف العيون وقد ضربها الحزن مع كل ابن يموت أو يصاب بالجنون فيطوِّح ذراعيه فى الهواء !

بعد أن خطب فى الناس للمرة الأخيرة كان يمشى وأنفاسه قابعة فى صدره تأبى الخروج، ثمة رغبةً ملحة تهز أعماقه وتناديه أن يفعل شيئًا، بدا و كأنه يترنح أو ينتظر لحظة موته أو جنونه هو الآخر، ملّ انتظار الحلم الذى ينتشله من مستنقع الوجع الغارق فيه، تحتاج جروحه أن تلتئم يبحث عن ماء ثلج يزيل به الندوب العالقة بوجهه الحزين، دومًا يبحث عن أمل تتحول النقمة بين يديه إلى نعمة لتولد من رحم الليل صباحات فضية ونسائم باردة تعانق حبات الندى.

توضَّأ من ماء المسجد المتهالك، ما زال أهل القرية يجمعون المال لإعماره، مرت خمس سنوات وحمزة البنّاء مازال يردد : المبلغ لا يكفى!

خـرج وفى ذهنـه فكـرة واحـدة استسـلم لهـا تمامًـا ولابـد مـن مواجهـة هـذا الجـن وفى الليـل.

كانـت فكـرة انتحاريـة، اختـار طريقـة موتـه وامتطى حمارته وراح يدربهـا عـلى الصمـود والتصـدى، حدثهـا بقلـب مفتـوح وبعقـل ثابـت : سـنخرج مـن هـذا الطريـق ونعـود منـه فى الليـل لنواجـه الجـن، أمسـتعدة أنـتِ ؟

كانـت الحِـمارة تهـز أذنيهـا وتضحـك مسـتبشرة، يربـت عـلى كتفيهـا بيديـن تحمـلان مـا يشـبه الغيمـة الشـتوية يصبهـا عـلى الأرض تتشـكل منهـا خارطـة جديـدة للقريـة. تصبـح فى حجـم عينـى امـرأة يعشـقها وفى اتسـاع ضحكـة طفـل ينتظـر عـودة أبيـه.

مـاذا لـو أسـقطته حمارتـه وضربهـا الـصرع كمثـل باقـى حمـير القريـة وفـرت عائـدة وحدهـا للدار؟

يفيـق عـلى صـوت الجـن، يتماسـك، يسـتجمع كل إرادتـه ويربـت عـلى كتـف حمارتـه، يسـأله الجـن:

- كم عمرك؟

-

- ولم تسألنى عن عمري؟

- كى أحصده.

- لست بزارعه، من يزرعه يحصده !

- أراك لا تخاف، ألن تصيح كمثل كل العابرين من هنا ؟

- أنا لن أصيح.

- ألا تريد لأحد أن يغيثك؟

- أنا لا أستغيث أبدًا !

- إذن أصرخ.

أنا إن صرخت عِشتَ أنت، وبينما يستكمل هنداوى جملته الأخيرة إذ بالجن يصرخ صرخةً اهتز لها قلب الحمارة فتبخرت كأنها لم تكن.

ثابتة منتصبة كملكة، شاهدت زينب الجن يحترق فبدأت تذوب عشقًا وشوقًا للعودة، كادت أن تطير كعصفورة طليقة وهنداوى بجانبها عيناه تلمعان فى الليل كالممسوس.

المؤلف فى سطور

د. عصام حسين عبد الرحمن

طبيب بشري

عضو نادى القصة

عضو اتحاد كتاب مصر

صدر له:

١. أوراق الرئيس (قصص).

٢. أحلام رخيصة : (رواية قصيرة).

٣. الكيلو ٢١: (رواية قصيرة).

٤. دُميةٌ حائرة: (رواية قصيرة).

٥. كرسى سادس خال: (قصص قصيرة).

٦. امرأة تعشق الخيول: (متوالية قصصية)

٧. زحف الأرانب، رواية تحت الطبع.

الفهرس

القسم الأول حرائق الروح

فى الفـراغ.....٧
الآخــر.....١١
العبـاءة الزرقـاء.....١٤
الأنفـاس الضيقـة.....١٨
مفاوضــات.....٢٢
بديل اصطناعــي.....٢٥
عطــر الحنــين.....٢٨
فاصــل طويــل.....٣٢
حديــث الكهــوف.....٣٤
بورتريــه.....٣٧
مجرد أســئلة.....٣٩
القصــة فى مغــارة.....٤١
قصــة ســخيفة جــدًّا.....٤٤
حنــين.....٤٧

القسم الثانى سرير غريب

سرير غريب..... ٥٥

وجه آخر للغواية..... ٥٨

عطر الفقد..... ٦١

عتمة الأشياء..... ٦٥

سحب سوداء..... ٧٠

من النافذة أحكى له..... ٧٣

بين مدينتين..... ٧٦

حوارات مقتضبة..... ٨١

العائدون ليلاً..... ٨٣

المؤلف فى سطور..... ٨٩